من الأدب الغربي

سانت بوف وفن النقد

بقلم علي كامل

النقد قبل سانت بوف

كان النقد في القرنين السابع عشر والثامن عشر قائماً على تلخيص أعمال الكتاب وايراد مقتطفات من كتاباتهم مصحوبة ببعض تعليقات عليها . وكانت هذه التعليقات على تفاهتها وقلة اهتمام النقاد بايرادها تمثل الفوضى المطلقة . فكان كل ناقد ينظر الى الكتاب المنقود بمنظار فكره الخاص . فاذا اتفق تفكير الكاتب وتفكير الناقد كان الكتاب ناجحاً في نظر الناقد فيهلل له تهليلا . وإذا خالفه كان سقوط الكتاب هو المصير الأكيد ! كان النقد إذن نظرياً فلم تكن له قواعد يتبعها الناقد في نقده . ولم تكن هناك شروط معينة من الفروض توفرها فيمن يتصدرون لنقد أعمال كبار الكتاب والأدباء ، لذا كان ينزل الى ميدانه كل من ظن في نفسه القدرة على مسك القلم وتسويد بضعة سطور على القرطاس . واستمر الحال هكذا حتى صاح (جرم) قائلا (إن الأعمال الأدبية العظيمة لا ينبغي أن تدرس بالاطلاع على ملخصاتها بل يجب أن تقرأ جيداً . أما الأعمال الأدبية التافهة فلا تستحق إلا الاهمال المطلق . إن النقد الصادق هو الدراسة والاصلاح . والناقد يجب أن يفهم المؤلف حق الفهم . ويتغلغل الى أعماق تفكيره لا أن يخضع لفكره الخاص)

على هذا الأساس نشأت بذرة فن النقد الحديث في أوائل القرن التاسع عشر . وكانت أول مظاهره نشوء ماسمي بالنقد التاريخي La critique historique والفكرة في ذلك أن العمل الأدبي خاضع بالضرورة للحالة الاجتماعية في العصر الذي كتب فيه . فلكي نحكم على الكتاب حكما عادلاً وجب أن نقيم وزناً للظروف التي عاصرته . . . تلك كانت وجهة النظر الجديدة وكان أول من عمل على تطبيقها الاستاذ فيلمان Villemain (١) فكان النقد في نظره صورة من التاريخ ، وقد اتبع طريقته في النقد عند كتابته عن الأدب الفرنسي والآداب الأوروبية كالأدب الانجليزي والايطالي والاسباني

ومن أوائل المجددين في النقد سان مارك جيراردان Saint-Marc Girardin (١٨٠١ — ١٨٧٣) وقد اشتهر بمحاضراته في السوربون وبكتابه Cours de littérature dramatique الذي قال عنه معاصره الناقد المجدد Nisard (أنه كتاب أدبي ولكنه يسمو الى مصاف الكتب الأخلاقية العظيمة)

اذن كان فيلمان وسان مارك جيراردان صاحبي الفضل الأول في الخروج بالنقد من فوضاه القديمة ، وذلك بمزج النقد بالتاريخ واعتبار الأول صورة مصغرة من الثاني . على أن فضلهما كان أشبه بمناورات طفيفة اذا قورنا بالفاتح الجديد سانت بوف

سانت بوف وأعماله الادبية

كان سانت بوف (١) Sainte-Beuve في مبدإ حياته طبيباً ثم انضم الى جماعة فكتور هوجو . وفي عام ١٨٢٨ نشر كتابه Tableau de la poèsie française au XVI siècle ثم ارتفع اسمه كشاعر عندما نشر عام ١٨٢٩ مجموعته الشعرية الأولى Poèsie de Joseph Delorme ثم مجموعته الشعرية الثانية Consolations (١٨٣٠) وفي عام ١٨٣٤ نشر قصته Volupté وفي عام ١٨٣٧ نشر مجموعته الشعرية الثالثة Pensées d'Août

وابتداء من عام ١٨٤٠ تفرغ سانت بوف للنقد الأدبي الذي نبغ فيه بسرعة نبوغاً عجيباً فلم يكن ينافسه فيه منافس . وفي عام ١٨٤٥ انتخب عضواً في الأكاديمي . وفي عام ١٨٥٧ عين أستاذاً في مدرسة النورمال فألقى سلسلة من المحاضرات نشرت فيما بعد بعنوان (دراسات عن فرجيل) Etudes sur Virgile . ولقد كتب سانت بوف ما يقرب من ثلاثمائة ترجمة biographie وصورة أدبية portrait littéraire جمعت تحت أسماء مختلفة منها (أحاديث الاثنين) و (صور أدبية) و (صور معاصرة) و (صور من النساء) وغيرها

عبقرية سانت بوف

إذا كان لفيلمان وسان مارك جيراردان فضل النهوض بالنقد كفن له قواعد وأصول، فان لسانت بوف فضل المجدد الطليق الذي

(١) فيلمان (١٧٩٠—١٨٦٧) عين وهو في شرخ الشباب أستاذاً في مدرسة نورمال . وفي عام ١٨٢١ انتخب عضواً في الأكاديمي . وفي عام ١٨٣٢ أصبح سكرتيرها الدائم . وقد عين وزيراً مرتين وترك بعد وفاته سلسلة من الابحاث النقدية أهمها Cours de la littérature française (١٨٢٨) و Etudes de le littéralure ancienne et étrangère. (١٨٤٦)

(١) ولد عام ١٨٠٤ ومات ١٨٦٩

لا يلتفت لحظة الى الوراء ولا يرعى تقاليد الماضي . فهو الرجل الذي قلب بحق فن النقد في القرن التاسع عشر فلم يبلغ أحد ما بلغه في تطبيق طريقة (النقد التاريخي) ولم يكن هناك من يفوقه فهما لمهمة الناقد الوفي .

كان سانت بوف ناقداً بالسليقة اذ كان يجمع كل الصفات التي يجب أن تتوفر في كل من يجرؤ على خوض غمار فن النقد . ذلك الفن الذي يعتبر — اذا استثنينا بلادنا ! من أصعب فنون الأدب . وهذه الصفات الضرورية التي كانت من أخص سجايا سانت بوف هي :

أولاً : حب الاطلاع . فكان يجد السعادة كلها في دراسة كل أنواع الكُتّاب — من يحبهم ومن لا يحبهم — وقراءة الأعمال الأدبية من جميع العصور

ثانياً : الجلد الذي كان يجعله لا يمل قراءة أبسط التفصيلات والاصغاء لكل كلمة قبل أن يقدم على نقد عمل أدبي . وكانت أبعد الصفات عن طبيعته أن يفر من الصفحات المملة أو أن يكتفي بقراءة الفهرس ودراسة المقدمة كما يفعل الكثيرون !

ثالثاً : الذكاء الوافر الذي يهيء له القدرة على فهم نفسه والتخلص من سيطرة رأيه الخاص في المؤلف وفي الموضوع الذي يبحثه المؤلف . وكانت عبقرية سانت بوف من هذه الناحية تنحصر في أمرين . الأمر الأول في مهارته في أن يلبس شخصية المؤلف الذي ينقده فيزول بذلك ما قد يوجد بينهما من اختلاف في وجهات النظر ويصبح للمؤلف في نظره رجلاً عادياً لا غرابة في أفكاره فينقده في هدوء وصفاء . والأمر الثاني في أن يخلق حول نفسه نفس الجو الذي كتب فيه الكتاب حتى تكون مواضيعه كلها حقائق واقعة . وعندئذ يقدم على دراسة الكتاب دراسة عميقة ناظراً اليه من كل النواحي مشدداً عليه الخناق . وكان هذا في نظر سانت بوف هو الوسيلة الوحيدة لفهم الكتاب

رابعاً : الليونة في التفكير . كانت لسانت بوف القدرة العجيبة على نقد كتاب ما ، ثم الانتقال الى نقد كتاب آخر على أتم خلاف في الرأي مع الكتاب الأول .

خامساً : عاطفة العدل . وهي سجية طبيعية نادرة الوجود لدى الناس . ويقصد بها أن الشخص اذا عهد إليه القضاء في أمر من الأمور فانه يكون أسير عاطفة تجعله لا يقضي الا بالحق والعدل . وهذا هو السبب في أن جل أحكام سانت بوف على مئات الكتب التي نقدها كانت أحكاماً عادلة سليمة من اللوم رغم تضارب أنواع الكتب واختلاف مذاهب مؤلفيها

استغل سانت بوف هذه المواهب النادرة في علمه كناقد . على أنه كان الى جانب ذلك مبتدعاً لطرق جديدة في النقد لم تكن معروفة من قبل . فأدخل على النقد شيئين :

أولاً : الصورة portrait ثانياً الترجمة biographie

ولنشرح الآن ماذا يقصد سانت بوف بالصورة ثم ماذا يقصد بالترجمة .

كان سانت بوف اذا أراد نقد كتاب من الكتب ساءل نفسه : ما هي أخلاق الكاتب ؟ وما هي ميوله ، وما هي طباعه ؟ وكان يلح في الوصول الى حقيقة هذه الأشياء التي قد يظن البعض أن لا علاقة لها بالكتاب المنقود . على أنها كانت في نظر سانت بوف أهم ما يساعد على فهم الكتاب علاوة على فهم المؤلف نفسه . وكانت هذه الفكرة هي الباعثة لسانت بوف على كتابة عشرات الصور لمختلف الكتاب والأدباء . وقد كتب سانت بوف يشرح فكرته في ذلك فقال (انني أحب دائماً الرسائل والأحاديث والأفكار وكل الدقائق التي تعين على فهم أخلاق الكاتب . وبكلمة واحدة أحب دراسة تراجم كبار الكتاب . ولقد أحبس نفسي خمسة عشر يوماً مختلطاً بكتب شاعر أو فيلسوف مشهور توفى فأدرسه وأعيد قراءة ما قرأته وأسائل نفسي في هدوء وروية ، وعند ما أنتهي من دراستي أرى أن هذه الدراسة قد أوصلتني في النهاية الى كشف عوالم خفية فأجد أن ذلك الكاتب الغامض الذي كان في البداية لا يختلف في نظري عن نوعه من الكتاب يضم من السجايا الفنية الخاصة به ما لا يمكن تجاهله ونسيانه)

ولقد ظهرت هذه الطريقة الجديدة في النقد التي اتبعها سانت بوف ظهوراً قوياً في مجموعته الشهيرة (صور أدبية) Portraits littéraires

على أن هذا النوع من الدراسة لنفسية الكتاب وأخلاقهم كان يعتبر في نظر سانت بوف سطحياً لا يكفي لكي يكون النقد كاملاً غير منقوص ، لذا كان يرى ضرورة التوسع في دراسة الكاتب واتمام ما كان يعتبره نقصاً باضافة ما سماه (التاريخ الطبيعي